الألوهية في الفكر الغربي الديني الحديث

أ. فطوم موقاري
جامعة الجزائر 1

الملخص:

إن الفكر الغربي هو حصيلة الصراع الذي دار بين المفكرين الأوربيين والكنيسة لوقت طويل، هذا الفكر جمع في طيات أفكاره الروح الإغريقية الوثنية والفكر الروماني القديم والفكر اليهودي والعقائد الوثنية في الديانة النصرانية التي تنطلق من الإلحاد (الإيمان بعقيدة التثليث والخطيئة والنظريات الوضعية) حيث تم إلغاء دور الخالق وأله الطبيعة وجعل من الإنسان مركز الكون، وقد احتل البحث في براهين وجود الله مساحة واسعة منذ عصر اليونان، وقد اختلفت في طبيعة البراهين على وجوده تعالى. إن الإلحاد هو نقيض التوحيد وهو عدم الإيمان أو الاعتقاد بوجود إله، وهو تيار ظهر على إثر نشاط التيارات الفكرية في نقد الأديان، فنجدهم ينضوون تحت لواء عدة مدارس فلسفية كالعقلية والمادية والنفعية وغيرها من المدارس. فيمكن أن نخلص إلى أن الخلفية الفكرية هي التي تحدد نظرة الإنسان لخالقه. فيا ترى كيف تناول الإنسان الغربي في العصر الحديث مفهوم الألوهية؟

الكلمات المفتاحية: الألوهية، الفكر الغربي، الحديث، الكنيسة، الإلحاد، المدارس الفلسفية.

Abstract:

That Western thought is the outcome of the conflict between European intellectuals and the church for a long time, this thought collecting in the folds of his ideas and spirit of pagan Greek thought, and the ancient Roman Jewish thought pagan beliefs in the Christian religion from atheism (faith in the Trinitarian dogma, and sin and theories position) where the abolition of the role of the creator and the God of nature and the making of the Human Rights Center of the universe, has been occupied in research evidence for the existence of God a wide area since the era of Greece , the different nature of the PROOFS of the existence of the Almighty. That atheism is the antithesis of unification is the absence of belief or believe in the existence of God, it is a trend appeared on the impact of the activity of the intellectual trends in the criticism of religions, we find them comprised under the banner of several philosophical schools such as mental, material and utilitarian and other schools. It can be inferred that the Background intellectual property rights are determined by this overview. Via see how to deal with the western human rights in modern times, the concept of the Godhead ?

Mots clés: Divinity, Western thought, atheism, modernity, church, atheism, philosophical schools.

مقدمة:

لقد أصبح من الضروري على الأمة الإسلامية أن تحدد موقفها من الحضارة الغربية والفكر الغربي، هذا الفكر الذي نشأ في أحضان وثنية اليونان وعبادة القيصر الإله الروماني، ثم اصطبغ بأساطير اليهودية المحرفة ومفاهيم المسيحية التي انصهرت في بوتقة أديان التثليث والتعدد، فلم يحمل في جوهره إلا قدرا ضئيلا من ميراث النبوة الحقيقي الذي طاله التحريف من رؤساء الأديان، إلا أن الغرب اصطنع جميع الوسائل الممكنة لتغريب المسلمين واحتواء الإسلام وإثارة الشبهات حول جوهر العقيدة من خلال مؤسسات الاستشراق والتبشير والتنصير والماسونية والدعوات الهدامة وطرح أيديولوجيات الإلحاد والشك الفلسفي، فيا ترى لأي مدى يمكن لهذه النظريات التي ظهرت خاصة في الفترة الممتدة من ق 17م إلى أوائل القرن 20م التأثير على الناس من خلال تقبل أو رفض الأديان بصفة عامة وخاصة النقطة المهمة وهي الألوهية؟

ولتحصيل مفهوم الألوهية في الفكر الغربي الديني الحديث، لا بد علينا أولا: دراسة واقع العالم الغربي، بفكره لأهميته وعلاقته بظروف العصر ومشكلاته، خصائصه واتجاهاته، الركائز المنهجية التي اعتمدوها في نقد الأديان، وأبرز الفلاسفة كيف أثروا بأفكارهم، الاعتراضات التي أوردوها على وجود الله.

إن معرفة العبد بمقام الألوهية هي أعظم المطالب وأجلها، فحاجة كل إنسان إلى معرفة إله الكون وموجده والعلاقة به حاجة ضرورية، مرتكزة في الفطرة وقد جبلت النفس على طلبها والبحث عما يسدها، لذا كانت المعرفة بها والاهتداء للحق في موضوعها رأس صلاح الدين والدنيا، وأصل النجاة في الدارين، وهي من أهم أبواب الاعتقاد التي اشتغل كثيرون بالبحث عن الحق فيها على مر العصور.

ولما كانت المعرفة التفصيلية بقضية الألوهية متعلقة بالغيب المحض، فقد ساق الله عزّ وجلّ فيما أوحى إلى أنبيائه وأنزل من كتبه ما بينها ووضحها وأقام بها الحجة، فاهتدى المؤمنون بنور الوحي إلى الإله الحق فعرفوه وعرفوا مراده والطريق الموصل إليه بينما ضل كل من لم يهتدي بنور الوحي عن كامل الحقيقة مهما اختلفت أقوالهم ومشاربهم، فمنهم من تجاهل الفطرة واستكبر وزعم أنه لا إله والوجود مادة ومنهم من اتبع هواه وعظم عقله المحدود ببشريته، وظن أنه يهديه إلى مراده استقلالا فتخبط في مسالك فلسفية شتى وتلاعب به الشيطان وزين له غير طريق الحق.

إن تتبع تاريخ الانحراف عن الحق في قضية الألوهية واستقصاء طرقه وأفكاره خاصة في فترة العصر الحديث، يوضح للمتلقي مدى الزيغ والضلال الذي وصل إليه الفكر الغربي الحديث بالخصوص، لما يحمله من أفكار ومعتقدات، حيث في هذه الفترة ظهرت تيارات نقدية للدين اعتمدت عدة ركائز مختلفة تبنتها.

تعريف الألوهية لغة:

"الهمز واللام والهاء أصل واحد وهو التعبد"[1]، والألوهية من آلَهَ، والإله هو المعبود سواء كانت عبادته بحق أو بغير حق. فاسم الإله يطلق على من يوجه إليه الخضوع والتقديس والتعظيم، فيُضرع إليه في المصائب ويُلجأ إليه في كل أمر[2].

ومن معاني الإله: الاحتجاب والحيرة، فالمعبود يكون متواريا عن الأنظار تحار فيه العقول ولا يدركه الناس[3] والإله الحق هو الله تعالى، ويطلق الإله على ما يتخذ من دونه معبودا عند متخذيه. والجمع آلهة، وحقه ألا يجمع باعتباره الإله الحق إذ لا معبود سواه[4] والإلهيات كل ما يتعلق بذات الإله وصفاته"[5]

"والتأله: التنسك والتعبد"[6] والألوهية: العبودية، أي التوجه بالعبادة إلى الإله الحق عزّ وجلّ، أو إلى الآلهة الباطلة، فالعبادة تكون لمن يعتقد نفعه وغناه وقدرته. وكل من عبد شيئا سكن إليه أو لجأت إليه، وألِه الرجل إلى الرجل إذا توجه إليه شوقا. ويقال: أله الفصيل إذا ولع بأمه[7].

تعريف الفكر لغة:

مفهوم الفكر: الفكر لغة: عرفه ابن منظور في لسان العرب أنه: "فكر: الفكر: إعمال الخاطر في الشيء، قال سيبويه: ولا يجتمع الفكر ولا العلم ولا النظر قال: وقد حكى ابن دريد في جمعه أفكارا، والفكرة كالفكر، وقد فكر في الشيء (قوله وقد فكر في الشيء الخ بأن ضرب كما في المصباح)، وأفكر فيه وتفكر بمعنى... ؟ ورجل فكير.. وفكير كثير الفكر والأخيرة عن كراع الليث.

التفكر اسم التفكير ومن العرب من يقول: الفكر. الفكرة والفكري على فعلي اسم وهي قليلة. التفكر: التأمل والاسم الفكر والفكرة والمصدر الفكر بالفتح، قال ليس لي في هذا الأمر، أي ليس لي فيه حاجة: والفتح فيه أفصح من الكسر[8].

لفظ الألوهية واطلاقاتها:

وكان هذا الإطلاق لما يشتبه عند العابدين بصفات الإله ومن ذلك:

1- اعتقاد نفعها أو ضرها، والقدرة على نفاذ حكمها وأمرها في العالم.

2- اعتقاد شفاعتها عند الله، فتدعى وتعظم ويستعان بها ظنا بأن شفاعتها تقبل لا محالة، وأن لها نفوذا وقدرة على إعانة متخذيها.

3- يأتمرون بأمرها وينتهون عما نهت عنه، بزعمهم أن لها الحق في الأمر والنهي وأن ليس فوقها سلطة قاهرة تحتاج إلى الرجوع والاستناد إليها.

بالتالي كلا من الربوبية والألوهية تستلزم الأخرى، فالذي لا ربوبية له لا يمكن أن يكون أو يتخذ إلها.

الفكر الغربي ومعالم انحرافه:

إن الفكر الغربي هو وليد الصراع الذي دار بين المفكرين الأوربيين والكنيسة لوقت طويل، نتج عن هذا الصراع ظهور تيارات فكرية تنتقد الأديان وما فيها ويمكن إرجاع هذه الأسباب التي أجملها المؤرخ ول ديورانت حيث كان له كلام طويل " وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية، والفكرية والعاطفية، والاقتصادية والسياسية والأخلاقية، تتجمع بعد قرون من التعويق والاضطهاد، في دوامة تقذف بأوربا في أعظم فورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما، ثم إن إضعاف البابوية بالنفي في أفنيون، والانقسام في صفوف البابوية، وانهيار النظام في الأديرة، وترهب رجال الدين، والترف الذي يرفل فيه البطاركة، وفساد مجالس القضاء الرومانية، ووجوه النشاط المتسم بالإقبال على الدنيا للبابوات، ... والتجار في المخلفات المقدسة، وبيع صكوك الغفران، وانتصار الإسلام على العالم المسيحي في الحروب الصليبية إلى جانب التركية، وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية، ... وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية في ظهور فلسفة سكوتس اللاعقلانية وشك أوكهام، ... والتأثير القومي للغات والآداب الشعبية، وتفاعل الميراث الفكري الذي خلفه الوالدانيون وويكليف وهس، والمطالبة بالتخفف من الطقوسية في سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحية، وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان.. إن هذه كلها كانت تتحد في سيل عارم، سوف يحطم عرف القرون الوسطى الذي كان أدنى إلى القشرة، وسوف يحل جميع المعايير والروابط، ويمزق أوربا إلى أمم ومذاهب، وسوف يكتسح أمامه أكثر فأكثر دعائم المعتقدات المأثورة وما تقدمه من عزاء، ولعلها تؤذن ببداية النهاية لسلطان المسيحية على الحياة العقلية للرجل الأوربي"[9].

لقد وضح المؤرخ الأسباب والدوافع التي أدت إلى هذه الثورة الشعبية والنقدية ضد الكنيسة والدين بصفة عامة، والدوافع وراء نفرة الناس من الدين والتشوهات الكبيرة التي رسخت وعششت في عقول الناس عن الأديان من بينها:

تحريف الدين المسيحي:

من الأدلة على تحريف العقيدة المسيحية نجد: ما توصل إليه عالم الأديان الفرنسي شارل جنيبير في دراسته عن تاريخ المسيحية وتطورها حيث انتهى إلى " أن المسيحية التي يتبعها الناس اليوم، إنما هي تحريف لما جاء به المسيح"[10]، كما أشار المؤرخ الإنجليزي لهذا الانحراف العقدي في الديانة المسيحية حين تحدث عن أول مجمع مسيحي بقوله " من الضروري أن نستلفت نظر القارئ إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيقيا[11] هذه التامة التطور، وبين تعاليم يسوع الناصري. فإن المسيحيين جميعا يعتقدون أن الأولى تنطوي على الثانية وتحتويها احتواءا تاما "[12]

إن مساس اليد البشرية بالدين المسيحي والتحريف الذي طال كل الأصول العقائدية والتشريعية التي نادى بها النبي عيسى عليه السلام، كان وسيكون له الأثر الكبير في تنفير الناس من الدين.

انحراف رجال الدين وتخليهم عن دورهم الدين والأخلاقي:

لو نظرنا إلى الكنيسة من حيث تنظيمها ومكانتها نجدها عبارة عن هيكل إداري كبير، يخدمها رجال ليس لهم عمل سواها، لكل منهم وظيفة ومرتبة دينية، يتقدمهم البابا الذي يتصورونه على أنه ممثل المسيح في العالم، فمنزلته أعلى من الناس وأقل من الله، "قد كانت الكنيسة جزءا من المشكلة، جزءا من المرض الذي كان يصيب كل معرفة بالله، لا جزءا من العلاج، لقد كانت الكنائس الأرض التي أنبتت الإلحاد"، [13] غير أن هذا التدخل الواضح والكبير في حياة الناس من طرف الكنيسة، وانحرافها عن مسارها نفر الناس من الدين وخيب آمالهم.

نضج وعي الإنسان الأوربي وتجاوزه سلطة الكنيسة:

عرفت أوربا موجة من التطور على مستوى عدة أصعدة: علميا فكريا تجاريا وحتى روحيا، حيث ظهرت فيه عدة مدارس فلسفية كان لها الأثر في توجيه انتقادات للمنظومة الكنسية، كسرت القيد الذي كانت تفرضه الكنيسة على الشعب، وهذا ينم عن الوعي الذي وصل إليه الفكر الغربي في عصر النهضة، فبعد الانتعاش الاقتصادي والتخلص من القهر والظلم، قارن الإنسان الغربي حياته الآن بما كانت عليه وقت سيطرة الكنيسة، جعله ينفر من الدين ويثور على قوانينه وتعاليمه.

فشل تجارب الإصلاح الديني ووقوعها في الأخطاء:

من أهم الحركات التي حاولت الإصلاح نجد الحركة البروتستانتية، التي ظهرت على يد مارتن لوثر، فهي" نقطة تحول في التاريخ، ليس بالنسبة لتاريخ الكنيسة فحسب، بل حضارة الغرب أيضا"[14]. مع العلم أن لوثر كان واحدا من رجال الكنيسة الذين وكلت لهم مهمة تدريس الكتاب المقدس، غير أنه في هذه الفترة نمت عنده بعض الانتقادات للكنيسة وهيكلها العام، والنقطة التي أفاضت الكأس عند لوثر هي: " اعتراضه على القديس حنا تينزل حين قدم إلى ألمانيا لبيع صكوك الغفران سنة 1517م، وجمع الأموال للكنيسة، فبادر لوثر وكتب عريضة مطولة، قدم فيها خمسا وتسعين اعتراضا على بيع صكوك الغفران، وعلقها على باب كنيسة في - ويتنبرج-[15]، تضمنت عدة انتقادات منها ما كان موجها للبابا من إنكار سلطته على الناس، وإنكار السلطة التي يتبناها في مغفرة الذنوب، وقد توجت عريضة مارتن لوثر بالدراسة وتحليل مفرداتها من طرف عدد من الباحثين.

أزمة الفكر الغربي الحديث:

ما يميز الفكر الغربي الحديث عن غيره هو اصطباغه بفلسفة التفكيك، الفلسفة التي ترفض المرجعية الفكرية والأخلاقية، هادفةً من ذلك نسفَ أيّ أساس للحقيقة، وإلى تقويض ظاهرة الإنسان، فليس هناك في فلسفة التفكيك حقيقة واحدة، بل مجموعة من الحقائق المتناثرة النسبية، وليس في الإنسان إلا بُعْدٌ واحد، وهو البُعْدُ المادي المجرَّد من القيم الأخلاقية والجمالية والروحية، تسيطر عليه العقلانية المادية وتطبّق عليه معايير العلوم الطبيعية والرياضية الكمّية.

هذه الفلسفة ليست جديدة العهد بل كانت بذرة كامنة في بنية العقل الغربي، بشقّيه الفلسفي والدِّيني، الذي تأثر بالفكر الشرقي القديم (الحضارة المصرية، الصينية القديمة، حضارة الهند، البابلية، الآشورية والفارسية) أيضا التراث اليهودي والمسيحي والحضارة الإسلامية وأخيرا العلم الحديث الذي كان دافعا آخر للابتعاد عن الدين وتأليه العقل، هذه الفلسفة قوَّضت علاقته بخالقه، وجعلتها علاقةَ تناقضٍ لا علاقةَ انسجامٍ، وعلاقةَ صراعٍ لا علاقةَ عبوديةٍ. وبسببها قطع الفكر الغربي الحديث علاقةَ العقل الإنساني بالدِّين الإلهي، ووصل بذلك إلى وصف تلك العلاقة بالتنافر والتضادّ، بل والتناقض. أدى هذا القطع إلى الانتشار الواسع لظاهرة الإلحاد "فلقد أشار استطلاع عالمي أجرته مؤسسة غالوب الدولية عام 2015 شارك فيه أكثر من64 ألف مشارك كشف عن 11 % ممن شملهم الاستطلاع أجابوا: «ملحد بقناعة» والمعروف أن أعلى نسب الإلحاد موجودة في القارة الأوروبية وفي شرق آسيا، وبينما توجد في فرنسا وإنجلترا والسويد

والنرويج أعلى نسبة من الملحدين في أوروبا، فإن النسب في الدول الآسيوية بلغت 61% من سكان الصين، 47% من سكان كوريا الجنوبية"[16].

فالإلحاد ما هو إلا نتيجة حتمية لموجة الانتقادات التي وجهت للأديان، التي اعترضت على وجود الله وكماله واعترضت على النبوة والوحي، أيضا على أصل الأديان وطبيعتها، هذه الظاهرة اعتمدت في نقدها على ركيزتين مهمتين إحداهما فلسفية والأخرى علمية فنجد الركائز الفلسفية تمثلت في النزعة الإنسانية المستقيمة، اعتماد المنهج الحسي، اعتماد منهج الشك المعرفي، النزعة المادية. أما الركائز العلمية: النزعة العلموية، نظرية التطور، الحتمية الميكانيكية. وبالتالي "ظاهرة الإلحاد في الغرب ارتبطت منذ نهايات القرن السابع عشر بالتطور العلمي الذي شهده الغرب وبخاصة أن ارتباط الإيمان الديني بالكنيسة وارتباط هيمنة الكنيسة وتسلطها بالوقوف عائقا أمام التقدم في البحث العلمي والتفكير الفلسفي الحرً، فقد ساهم في انتشار موجة الإلحاد المصاحب أيضا لظهور العلمانية والفصل بين الدين والعلم وبين الدين والسياسة"[17]. كما كان لنظرية التطور الأثر البارز في إبعاد الناس عن الدين وتنامي ظاهرة الإلحاد، أيضا تنامي هجمات الفلسفات الإلحادية مثلما حدث مع الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية التي هوجمت من طرف فلاسفة عصر التنوير في القرن 18م، وظهرت شخصيات كان لها اتجاه نقدي على الألوهية مثل ماركس الذي أعلن أن الدين أفيون الشعوب، أيضا نيتشه الذي أعلن موت الإله، أيضا الفلسفات الوضعية التجريبية التي هاجمت كل المعتقدات البشرية المتعلقة بالماوراء وحسبهم أنه لا حاجة لهذه المعتقدات الدينية الميتافيزيقية.

الألوهية:

تعتبر فكرة الألوهية من أقدم الأفكار التي تناولها الإنسان بالتفكير والتطوير، وهي متغيرة بحسب الزمان والوضع السياسي والاجتماعي والديني للحضارات المتعاقبة، لقد مر مصطلح الألوهية بعدة مراحل عبر الأزمنة والعصور، ليستقر في الأخير مع مجيء الديانات السماوية التي نادت بالتوحيد في كل من اليهودية والمسيحية والإسلام، إلا أن الشعوب التي اعتنقتها سربت إليها أفكارا مثل الحلولية الإلهية في الديانة اليهودية، وأفكار الأقانيم والتعدد والثالوث والناسوت في الديانة المسيحية، وتأليه الأشخاص وعبادتهم، وظهور المذاهب والأفكار المتطرفة في الديانة الإسلامية.

مفهوم الألوهية في الفكر الغربي الحديث:

حدد العلماء العصر الغربي الحديث بالمدة الزمنية التي تتمحور على قرابة ثلاثة قرون ونيف بدءا بالقرن السابع عشر فالثامن عشر ويليه القرن التاسع عشر وجزء من القرن العشرين، وقد

امتاز كل عصر برجاله ومظاهره وأفكاره التي تميزه عن غيره من القرون، غير أن هذا التقسيم لا يخضع لمعايير مضبوطة لأن الأفكار لا تقاس بالأيام والسنين.

ولو رجعنا لقضية الألوهية وكيف نظر إليها المفكر والفيلسوف الغربي في هذه الفترة، لوجدناها تختلف باختلاف الخلفية والمنهجية المتبعة من طرف الفلاسفة وبحسب المدارس التي ينتمون إليها من عقلية وتجريبية وغيرها، ما أدى إلى ظهور تيار الإلحاد بأنواعه. هناك إحصائية تبرز نسبة المؤمنين بالأصول الإيمانية للنصرانية في أوربا تظهر أن أكثر نسبة إلحاد في السويد الإيمان بـ:

- الله 15%. - الروح (الحياة) بعد الموت 59 %. - الجنة 12%. - الشيطان 9%.

- جهنم 3%.. - الخطيئة 31%. - قيامة الأموات 21%.

وأكثر نسبة إيمان في إيرلندا الإيمان بـ:

- الله 96%. - الروح (الحياة) بعد الموت 84%. - الجنة 85%. - الشيطان 52%.

- جهنم 50%. - الخطيئة 84%. - قيامة الأموات 70%. [18]

ونظرا لعدم اتساع المجال للتفصيل في كل هذه الفترة، سنحاول عرض نظرة على الأقل فيلسوف لكل قرن، إذ القرن السابع عشر كانت فيه موجة نقد كبيرة للكنيسة ورجالها ومنظومتها ما أدى إلى ظهور الإلحاد الشكي واخترت الفيلسوف اسبينوزا، أما القرن الثامن عشر فقد تميز بالثورة الفرنسية التي كان لها الأثر الكبير في تنفير الناس من الدين، وثورة العقل، ومثلت له بالفيلسوف هيوم، القرن التاسع عشر وهو قرن التطور العلمي ونظرية التطور لداروين وما صاحبها من تأثيرات على تنامي تيار الإلحاد الصريح ومن بين من يمثلونه نجد فيورباخ ونيتشه الألماني.

القرن السابع عشر:

يعد القرن السابع عشر بداية المحصلة الأولى لقضايا عصر النهضة، وهو بوابة العصر الحديث، لقد تعرضت الكنيسة لموجة من الانتقادات من طرف التيارات الفلسفية. لقد عرف القرن السابع عشر باشتداد شوكة المذهب المادي الذي كان موجودا في القرون السابقة للقرن 17، إذ يرجع أصل كل الوجود للمادة.

يعتبر باروخ اسبينوزا من أشهر فلاسفة العصر الحديث في الغرب ومقعد أسس الفلسفة العقلية التي ظهرت في القرن الثامن عشر، من بين مؤلفاته "رسالة في اللاهوت والسياسة" و"كتاب

الأخلاق". لقد كان لسبينوزا مواقف مناقضة لعقائد الأديان، إذ يرى أن الأديان بصفة عامة ما هي إلا أدوات تنظم المجتمع، وترتب أخلاقه العملية، أنكر المعجزات، وقلل من قدر النبوة، كما يعتبر من بين الفلاسفة الذين قبلوا البرهان الوجودي، الذي من خلاله بنى تصوره عن الإله يرجع إلى فكرة وحدة الوجود، مضمونها التوحيد بين وجود الإله ووجود الكون، إذ جاء في قوله: "الله- أعني جوهرا يتألف من عدد لا محدود من الصفات المعبرة كل واحدة عن ماهية أزلية لا متناهية - واجب الوجود. إذا نفيتم ذلك فتصوروا، لو أمكنكم، أن الله غير موجود. إن ماهيته لا تنطوي أبدا على وجوده، بيد أن ذلك محال، إذا فالله واجب الوجود"[19]، كما كان له قول آخر "فإن لم توجد علة أو سبب لمنع وجود الله أو لنزع الوجود عنه، فلا مناص من استخلاص وجوده الضروري"[20].

لقد كان لسبينوزا نفس التوجه مع ديكارت حيث ركز على أن الوجود خاصية، لذا قرر أن من طبيعة الجوهر أن يكون موجودا، بمعنى أن ماهيته تنطوي بالضرورة على وجوده، حتى أن الكنيسة سعت لمنع بيع كتبه لما فيها من تقوية شوكة الملحدين الذين اعتمدوا أقواله ومواقفه "جعلوا قول اسبينوزا بوحدة الوجود، ذهابا منه إلى أنه يطابق بين الطبيعة والإله، وأنه بذلك ينفي أي وجود للكائنات الخارقة والخارجة عن الوجود المادي، وأنه بذلك يدعم الفهم المادي الإلحادي للطبيعة"[21].

يمكن الخلاص إلى أن سبينوزا واحد من أعمدة المذهب العقلي الذي يرى بعدم إمكانية استنباط الكلية والضرورة من التجربة، وإنما بالعقل فقط، إما من مفاهيم فطرية في العقل أو من خلال مفاهيم لا توجد إلا في شكل استعدادات مسبقة في العقل.

القرن الثامن عشر:

من أبرز التيارات الفلسفية التي ظهرت في هذا القرن نجد المذهب الشكي التجريبي، الذي كان له حضوره في القرن السابع عشر، غير أنه شهد تطورا خلال هذا العصر، وهو محصلة الالتزام بأصول المذهب الحسي، ومن بين رواده أو الفاعلين فيه نجد الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم (1776م)، السبب الذي دفع بهيوم للوقوع في الشك هو رد المعرفة الإنسانية كلها للمدركات الحسية فقط، وجعل من الحس المصدر الوحيد للمعرفة، "وقد كان هيوم معجبا بقدماء الشكاك، وكان ينعت نفسه بالشاك ويرى أن الفلسفة هي هذا الشك"[22]. ومن بين المواضيع التي أثارها وناقشها القضايا الدينية التي لم تسلم من شكه، نجده تناول قضية الاستدلال على وجود الله والمعجزات، كما شكك حتى في قضية المعجزات، حتى أنه وصف أن كان "شاهرا سكينه الحادة النصل، ومستعدا لذبح كل من يقول بالقيم والقصد وبالله"[23].

لقد كان تأثير المنهج الشكي الذي تبعه هيوم إثر تناول القضايا الدينية أثر كبير وبالغ على كل من جاء بعده، حتى أن بعض المؤرخين وصفوا ما جاء ونادى به هيوم "بأنه تحطيم للأساس العقلي لإثبات وجود الله، وأنه أيقظ شكوكا كبيرة حول صحة الأديان"[24]. بالتالي كانت مواقفه التشكيكية في الأديان وفي وجود الله بصفة خاصة سندا ودعما قويا للملاحدة المنكرون لوجود الله.

فيمكن الخلاص إلى أن هيوم في دراسته المعتقدات الدينية وخاصة الألوهية باستعمال المنهج الشكي والعلية، يذهب في إثباته لوجود إله واحد لا يتم إلا عن طريق الاستدلال التجريبي وبمنهج الاستدلال العلي، بحسبه" إذا افترضنا الله علة النظام في العالم، فحيث أن كل ما ننسبه لله نستنبطه من العالم، لذلك لا يمكن أن ننسب له إلا درجات من القدرة والحكمة والبصيرة وسائر الصفات الكمالية تكفي لإيجاد وخلق ما يوجد فعلا في العالم"[25]

من وجهة نظر هيوم، فهوى يرى بنجاعة منهج الاستدلال العلي وفشل منهج الاستدلال القبلي في إثبات إله الأديان أو الإله المتطابق مع الفهم المسيحي، بسبب ميوله الطبيعي. غير أن الكنيسة بقيت عاجزة عن التصدي لأفكار هيوم التي قوت شوكة الملاحدة.

القرن التاسع عشر:

إذا كان الإنسان الغربي في القرن الثامن عشر أعطى أهمية كبيرة للعقل وبالغ في تقدير العلم التجريبي، فإنه ارتبط ارتباطا كبيرا بالعلم، وقد صرح بهذا القول الفيلسوف أوغست كومت قال: "أن القرن التاسع عشر قد شهد ولادة العصر الوضعي الذي أخذ يحل محل عصور اللاهوت والميتافيزيقا"[26] لهذا وصف العلم المادي بـ "الإله الجديد"[27]. حتى أنه أصبح العلم هو المرجع الأول لكل سؤال وفي شتى الشؤون، نتيجة لهذا المنحى تشكلت النزعة العلموية عند بعض الفلاسفة إذ يعتقدون أنه للإجابة على كل الأسئلة ومعرفة كل الحقائق لا بد من الرجوع للعالم والعالم فهما مصدرها، كما أنه اقتحم حتى المجالات المخصصة للدين.

لهذا يعتبر القرن التاسع عشر عصر طغيان العلم والمذهب المادي، وفي هذا وصف من طرف إروين د. كانهام "عشنا طوال القرن التاسع عشر، وجزءا من القرن العشرين، في جو مادي واثق من نفسه... كان عالما ميكانيكيا، وكنا نجلس فوق قمته، كنا نمسك بالقوى الظاهرة للمادية، وكانت المادية إلهنا، كان العالم الطبيعي يتحدى الوحي الروحي الإنجيلي بنظريات في الإلحاد والعقلانية"[28].

إن مغالاة الإنسان الغربي في تقديس العلم التجريبي وما صاحبه من نظرية التطور لداروين، أدخلت الدين في أزمة عصيبة، حيث قوية شوكة الملحدين، حتى قالت كارين أرمسترونغ فيه "ما من

مجتمع قد استأصل الدين الذي كان الناس يقبلوه بديهيا كإحدى حقائق الحياة. ولم يحدث ذلك إلا في نهاية القرن التاسع عشر عندما وجدت حفنة من الأوربيين أن من الممكن إنكار وجود الله"[29]، يمكن أن نخلص إلى أن القرن التاسع عشر هو القرن الذي ظهر فيه تيار الإلحاد صراحة كمذهب متكامل صرح بإنكار وجود الله، ومن بين رواده نجد فيورباخ الذي ينتمي لتيار الإلحاد المادي ومن ناشطي تيار اليسار الهيجلي، حيث نادى بتأليه الإنسان، وفسر الأديان بأنها إعلان الإنسان لنفسه وتقديسه لها، كما أرجع حقيقة الله إلى أنه مجرد ارتقاء الإنسان في تصوره وصفاته وذاته، كما نجد كارل ماركس ونيتشه (الذي أعلن موت الإله) وفرويد.

الاستنتاجات:

إن الاعتقاد بفكرة الألوهية تعتبر من أقدم الأفكار التي تعرض لها الإنسان بالتفكير والتطوير، غير أن هذه اللفظة أو الفكرة متغيرة من دين لآخر، إذ نجد أن هذه الفكرة مرت بمراحل تراوحت بين التعددية للأرباب والآلهة المتعددة والوثنوية، إلى التفريد والتفضيل حتى انتهت إلى الواحدية المطلقة مع مجيء الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام. ورغم الوعي والتطور الذي وصل إليه الإنسان في العصر الغربي الحديث إلا أن مغالاته في تقديس العلم والعقل وحتى المذهب الشكي، جعله يقع في مطب الإلحاد وإنكار الأديان، الإنسان بدون إله هو إنسان دون أبعاد ربانية وإنسانية، حيث أنه هناك دراسة تبين من خلالها أن أكبر نسبة إلحاد في السويد وأكبر نسبة إيمان في ايرلندا (طبعا الإيمان بالأصول المسيحية) وهذا يرجع للتراكمات التي عاشها العالم الغربي على مر العصور وتنامي ظاهرة التدين الفردي. وبهذا يكون الإنسان الغربي عاجز عن الإجابة على أسباب خلق الإنسان أو الكون، وإثبات حقيقة وجود قوة خارجية مدبرة وخالقة للكون وللإنسان ومصيره لحظة بلحظة، إنها عظمة الله عزّ وجلّ.

قائمة المصادر والمراجع:

❁ القرآن الكريم

- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م.
- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط3، 1956م.
- باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009م.

- جعفر شيخ إدريس: الفيزياء ووجود الخالق، مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، ط1، 2001م.
- جماعة من الأساتذة السوفيات: موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة وتقديم: توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1989م.
- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ترجمة عزرا مرجان، ط1، مطبعة دار الثقافة للطباعة، القاهرة، 1990م.
- جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ترجمة: جورج طعمه، دار الثقافة بيروت، ج1.
- الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1987م.
- الراغب الأصفهاني المفردات في غريب القرآن،، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت، دار القلم، الدار الشامية، 1412هـ.
- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث 1601-1977م، ترجمة أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، مصر، ط3، 1994م.
- سامي عامري: العالمانية، طاعون العصر كشف المصطلح وفضح الدلالة، مركز تكوين للدراسات الإسلامية، لندن، ط1، 2017م.
- شارل جنيبير: المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، دط، دت.
- الفيروز آبادي القاموس المحيط،، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 2005م.
- فيليب فرانك: فلسفة العلم الصلة بين العلم والفلسفة، ترجمة د. علي علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1983م.
- كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 1996م.
- محمد فتح علي خاني، فلسفة الدين عند ديفيد هيوم، ترجمة حيدر نجف، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، 2016م.
- مصطفى النشار: الفكر الغربي مزيج مضطرب بين الإلحاد والإيمان، مجلة الاستغراب ع7، ربيع 2017.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: ابراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، القاهرة، دار الدعوة.

- هربرت جورج ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مج3.
- ول ديورانت، قصة الحضارة، تقديم: محي الدين صابر، ترجمة: زكي نجيب محمود، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس، ط1، 1992م.
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012م.

الهوامش:

1- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م، 127/1.

2- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط3، 13/467-469، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 2005م، ص 1242.

3- أنظر المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت، دار القلم، الدار الشامية، 1412هـ، ص 83، ولسان العرب، ابن منظور، 13/467، 469، الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1987م، 2224/6.

4- أنظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص82- 83، ولسان العرب، ابن منظور، 13/ 467.

5- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: ابراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، القاهرة، دار الدعوة، ص 25.

6- الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1987م، 2224/6.

7- أنظر لسان العرب، ابن منظور، 468/13، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 2005م، ص 1242.

8- ابن منظور، محمد بن عبد الكريم (ت 711هـ)، لسان العرب طبعة دار صادر، بيروت 1956م، 35/11.

9- ول ديورانت، قصة الحضارة، (283/23-284).

10- شارل جنيبير: المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، دط، دت، ص 49.

11- المراد بها الحالة العقدية التي اعتمدتها الكنيسة بعد مجمع نيقة.

12- هربرت جورج ويلز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مج3، ص38.

13- جعفر شيخ إدريس: الفيزياء ووجود الخالق، مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، ط1، 2001م، ص 25.

14- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ترجمة عزرا مرجان، ط1، مطبعة دار الثقافة للطباعة، القاهرة، 1990م، 24/4.

15- لوريمر، تاريخ الكنيسة، ترجمة عزرا مرجان، ط1، مطبعة دار الثقافة للطباعة، القاهرة، 1990م، 4/ 113-114.

16- مصطفى النشار: الفكر الغربي مزيج مضطرب بين الإلحاد والإيمان، مجلة الاستغراب ع7، ربيع 2017، ص 21.

17- مصطفى النشار: الفكر الغربي مزيج مضطرب بين الإلحاد والإيمان، مجلة الاستغراب، ع7، ربيع 2017، ص 23.
18- سامي عامري: العالمانية، طاعون العصر كشف المصطلح وفضح الدلالة، مركز تكوين للدراسات الإسلامية، لندن، ط1، 2017م، ص 273.
19- باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، مراجعة: جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009، ص 40.
20- نفس المرجع، ص 41.
21- جماعة من الأساتذة السوفيات: موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة وتقديم: توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1989م، ص 171.
22- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012م، ص 188.
23- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث 1601-1977م، ترجمة أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، مصر، ط3، 1994م، ص 656.
24- جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ترجمة: جورج طعمه، دار الثقافة بيروت، ج1، ص 458.
25- محمد فتح علي خاني، فلسفة الدين عند ديفيد هيوم، ترجمة حيدر نجف، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، 2016م، ص 313.
26- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث 1601-1977م، ترجمة أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، مصر، ط3، 1994م، ص 372.
27- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث 1601-1977م، ترجمة أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، مصر، ط3، 1994م، ص 372.
28- فيليب فرانك: فلسفة العلم الصلة بين العلم والفلسفة، ترجمة د. علي علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1983م، ص 296.
29- كارين أرمسترونغ: الله والإنسان، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 1996م، ص 288.